مِنْ أَمْجَادِ الْجَزَائِرِ

(1962 - 1830)

سِلْسِلَة تَارِيخِيَّة ثَقَافِيَّة تَصْدُرُ عَنْ وَزَارَة الْمُجَاهِدِينَ

الشَّهِيد

الحَبِيب بَنَّايِيّ

1956 - 1928

منشورات المتحف الوطني للمجاهد

الشهيد

الحبيب بنّابي

1956 - 1928

حقوق التأليف والنشر محفوظة للمتحف الوطني للمجاهد 2009

ر . د . م . ك : 978-9961-884-50-8
الإيداع القانوني : 2009-5884

المتحف الوطني للمجاهد

ص .ب 168 – المدنية – الجزائر
الهاتف : 00.213.021 . 66. 92. 08 – 65 . 45. 06
الفاكس : 00.213.021 . 66 . 91 . 54

BP 168 EL - MADANIA - ALGER
TÉL : 00.213.021.66. 92.08-65.45.06
FAX:00.213.021.66.91.54

البريد الإلكتروني :Email: mnm@museenat-moudjahid.dz

تصدير

تصدر هذه السلسلة التاريخية المخصصة للشهداء الرموز الذين يزخر بهم تاريخ المقاومة والثورة التحريرية، لتنير أمام الأجيال ولاسيما الشباب معالم درب النضال والجهاد الذي شقه ملايين الشهداء الأبرار بدمائهم الزكية، وعبدوه بأجسادهم الطاهرة ليكون معبرا للجزائر ولشعبها إلى الحرية والاستقلال.

تعد هذه السلسلة مساهمة من وزارة المجاهدين في بناء الذاكرة الجماعية وإثرائها، تعزيزا للجهود التي ما فتئت الدولة الجزائرية تبذلها من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية، ودعم تواصل الأجيال وتلاحمها.

أرجو أن يجد الشباب الجزائري في هذه السلسلة ما يروي عطشه لمعرفة تاريخ بلاده وتضحيات شعبه خلال المقاومة والثورة التحريرية التي تعتبر مرحلة هامة في تاريخه المجيد.

محمد الشريف عباس

وزير المجاهدين

اخْتَارَ أَسْتَاذُ اللُّغَة وَالأدَب العَرَبِيِّ ذَاتَ يَوْمٍ نَصًّا أَدَبِيًّا بِعُنْوَانٍ "شَمْعَةٌ تَحْتَرِقُ" لِلأَدِيبِ الحَبِيبِ بَنَّاسِي، وَجَعَلَهُ مَوْضُوعَ حِصَّةِ "دِرَاسَةِ نَصٍّ" قَصْدَ إِطْلاَعِ تَلاَمِيذِه عَلَى حَيَاتِه وَنِضَالِه وَأَسْلُوبِ كِتَابَتِه. وَقَبْلَ مَوْعِدِ الحِصَّةِ، وَزَّعَ الأَسْتَاذُ النَّصَّ عَلَى طُلاَّبِه وَكَلَّفَهُمْ بِقِرَاءَتِه فِي المَنْزِلِ، اسْتِعْدَاداً لِمُنَاقَشَتِه فِي حُجْرَةِ الدَّرْسِ. جَاءَ مَوْعِدُ الحِصَّةِ، فَطَلَبَ الأَسْتَاذُ مِنْ أَحَدِهِمْ أَنْ يَقْرَأَ النَّصَّ عَلَى مَسَامِعِ زُمَلاَئِهِ قَبْلَ المُنَاقَشَةِ، فَقَرَأَ النَّصَّ الآتِي:

«انْقَطَعَ التَّيَّارُ الكَهْرَبَائِيُّ فَجْأَةً، فَانْطَفَأَ الضَّوْءُ وَسَادَ ظَلاَمٌ دَامِسٌ وَسُكُونٌ خَاشِعٌ، فَلَمْ تَعُدْ تَسْمَعُ فِي حُجْرَتِي إِلاَّ أَنِينًا مُتَصَاعِداً بِانْتِظَامٍ، مِنْ صَدْرٍ مُبَرَّحٍ بِالآلاَمِ. ذَلِكَ هُوَ

أنـيـني، وَذَاكَ هُـوَ صَـدْري، وَضـقْتُ بـهَـذه الـوَحْشَة، وَتُقْتُ إلَى النُّورِ. وَمَا أَجْمَلَ النُّورَ فِي عَيْنَيْ مِثْلِي...!

وَهَكَذَا هَرَعْتُ إلَى الْعَطَّار لأشْتَري شَمْعَةً تُنيرُ قَلْبي، وَتَطْرُدُ عَنِّي شَيَاطينَ الهَوَاجس الْمُتَلَثِّمَة بالأحْزَان، الْمُتَسَرْبلَة بالسَّوَاد القَاتم، تلْكَ الهَوَاجسُ لاَ تَعيشُ إلاَّ في الظَّلاَم. وَمَا أشَدَّ ظَلاَمَ قَلْبي مَعَ تلْكَ الهَوَاجس ...! وَمَا هيَ إلا فَتْرَةٌ حَتَّى كَانَت الشَّمْعَةُ أمَامي تُرْسلُ إلَيَّ شُعَاعَهَا، كَالحكْمَة الَّتي تُنيرُ القُلُوبَ، وَتُرْشدُهَا إلَى الصَّوَابِ، وَهِيَ تَنْظُرُ إلَيَّ بعَيْنَيْهَا الدَّامعَتَيْن.

قُلْتُ لَهَا: إيه أيَّتُهَا الشَّمْعَةُ! فَقَدْ أضَاءَ نُورُك سَائرَ البَيْت، وَطَرَدْت الوَحْشَةَ منْهُ، وَلَكنَّ نُورَكَ لَمْ يَنْفُذْ إلَى قَلْبَيَ ليُنيرَ ظَلاَمَهُ، وَمَا حَاجَتي بك وَبنُورك إذَا بَقيَ قَلْبي كَمَا هُوَ فِي غَيَاهبِ الظَّلاَمِ»!

وَلَمَّا أَنْهَى التِّلْمِيذُ القِرَاءَةَ، سَأَلَ الأُسْتَاذُ:

هَلْ فَهِمْتُمْ مَا يَقْصِدُ الكَاتِبُ بِالشَّمْعَةِ وَالنُّورِ وَالظَّلاَمِ وَالهَوَاجِسِ وَالوَحْشَةِ؟

تِلْمِيذٌ آخَر:

إِنَّ مَا فَهِمْتُهُ مِنْ هَذَا النَّصِّ هُوَ أَنَّ الكَاتِبَ كَانَ يَعِيشُ حَيَاةً يَغْلُبُ عَلَيْهَا طَابَعُ الحُزْنِ وَالتَّشَاؤُمِ وَاليَأْسِ، فَالدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ ظَلاَمٌ فِي ظَلاَمٍ، وَالشَّمْعَةُ فِي نَظَرِهِ تُرْسِلُ نُوراً وَلَكِنَّ نُورَهَا لَمْ يَنْفُذْ إِلَى قَلْبِهِ، لأَنَّ الأَحْزَانَ وَالهَوَاجِسَ لاَ تَتْرُكُ النُّورَ يَصِلُ إِلَى القَلْبِ.

تِلْمِيذٌ آخَر:

- إِنَّ الشَّمْعَةَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ عَنْهَا الحَبِيبُ بَنَّاسِي لَيْسَتْ شَمْعَةً حَقِيقِيَّةً، وَإِنَّمَا هِيَ رَمْزٌ أَرَادَ أَنْ يُعَبِّرَ بِهِ عَنْ أَفْكَارٍ كَانَتْ تَعِيشُ مَعَهُ، لَمْ يُفْصِحْ عَنْهَا.

تلْميذَةٌ:

لَعَلَّهُ يُريدُ أنْ يُبَيِّنَ للْقَارئ دَوْرَ الأديب أو الكَاتب في هَذه الْحَيَاة، فَهُوَ يَحْتَرقُ أَلَمًا وَمُعَانَاةً، وَيَبْذُلُ جُهْدًا فكْريًا ليُفيدَ النَّاسَ، وَيُنيرَ دُرُوبَهُمْ في الحَيَاة.

تلْميذَةٌ أخْرَى :

لَقَدْ تَحَدَّثْتُمْ عَنِ الشَّمْعَة، وَعَمَّا يَرْمُزُ إلَيْه الكَاتبُ منْ حَديثه عَنِ النُّورِ وَالظَّلاَم، وَلَكنْ لَمْ نَعْرَفْ شَيْئًا عَنْ حَيَاةَ الأديب، إنَّنَا نُريدُ أنْ نَعْرفَ كَيْفَ عَاشَ طُفُولَتَهُ، وكَيْفَ قَضَى شَبَابَهُ، وَمَاذَا عَنْ نضَاله السِّيَاسيِّ، وكَيْفَ الْتَحَقَ بالثَّوْرَة؟ وكَيْفَ اسْتُشْهدَ؟

وَافَقَ الأسْتَاذُ عَلَى هَذه الْمُلاَحَظَة، وَقَالَ:

إنَّ هَذَا هُوَ الهَدَفُ الْمُهمُّ في الدَّرْس! وَسَنَتَنَاوَلُهُ حينًا. وَلَكنْ قَبْلَ أنْ نَبْدَأَ الحَديثَ عَنْ حَيَاةِ الأَديبِ يَنْبَغِي أنْ نُعَلِّقَ عَلَى مَا

فَهمَهُ زَميلُكُمْ بشَأن الحَالَة النَّفْسيَّة الَّتي لازَمَت الأَديبَ فَتْرَةً منَ الزَّمَن، وَطَبَعَتْ حَيَاتَهُ بطَابَعِ الحُزْنَ وَالتَّشَاؤُمِ وَاليَأس، أقُولُ : إنَّ هَذَا الاسْتنْتَاجَ صَحيحٌ، وسَبَبُهُ هُوَ الأوْضَاعُ السَّيِّئَةُ الَّتي كَانَتْ تَعيشُهَا الْبلاَد نَتيجَةَ الْحرْمَان وَالظُّلْم وَالاسْتعْبَاد، تلْكَ الأوْضَاعُ الَّتي أَثَّرَتْ فيه، وَجعَلَتْهُ يَكْتُبُ بأسْلُوب حزين، ونَظْرَة مُتَشَائمَة. يُضَافُ إلَى هَذه الأوْضَاع، الأحْدَاثُ الَّتي عَاشَهَا قَبْلَ الثَّوْرَة، وَالَّتي كَانَ لَهَا تَأثيرٌ قَويٌّ في نَفْسيَّته وَفي تَفْكيره.

أوَّلُ هَذه الأحْدَاث، الْفَاجعَة الَّتي عَاشَهَا جَرَّاءَ انْهيَار المَنْزل الَّذي كَانَ يَسْكُنُهُ مَعَ زُمَلائه في (فَاسْ) بالمَغْرب الأقْصَى، وَممَّا رَوَّعَهُ وَعَمَّقَ أحْزَانَهُ، أنَّهُ شَهدَ ذَلكَ الانْهيَارَ، وَأسْهَمَ في إسْعَاف المُصَابينَ منَ الطَّلَبَة.

وَثَاني هَذه الأحْدَاث، أزْمَةُ الخلاَف الَّذي وَقَعَ بَيْنَ أعْضَاء قيَادَة الحزْب (أيْ الحزْب

الَّذي كَانَ يَنْتَمي إلَيْه)، حينَ تَمسَّكَ كُلُّ طَرَفٍ بمَوْقفه السِّيَّاسي منْ فكْرَة الإقْدَام عَلَى تَفْجير الثَّوْرَة، فَرَفَضَ هَذَا الخلاَفَ الَّذي أَحْدَثَ انْقسَامًا في صُفُوف الْمُنَاضلينَ في النِّصْف الأوّل منَ الخَمْسينيَّات.

وَثَالثُ هَذه الأحْدَاث هُوَ أثَرُ القُنْبُلَة الَّتي أصَابَتْ إحْدَى عَيْنَيْه نَتيجَةَ مُشَاركَته في الْمُظَاهَرَات الَّتي نَظَّمَهَا الطَّلَبَةُ التُّونسيُّونَ بجَامع الزَّيْتُونَة احْتجَاجًا عَلَى تَصَرُّفَات السُّلُطَات الفَرَنْسيَّة، وَمُجَابَهَتهَا للْمُتَظَاهرينَ، بإطْلاَق القَنَابل الْمُسيلَة للدُّمُوع، فَكَانَ ذَلكَ سَبَبًا في انْقطَاعه عَنِ الدِّرَاسَة، وَرُجُوعه إلَى بلاَده الجَزَائر.

وَتَطَرَّقَ الأسْتَاذُ إلَى الإجَابَة عَنْ تَسَاؤلاَت التِّلْميذَة، الْمُتَعَلِّقَة بنَشْأة بَنَّاسي وَمَسَاره السِّيَّاسي وَالجهَادي فَقَالَ:

وُلِدَ الْحَبِيب بَنَّاسي في 13 ديسَمْبَر 1928 بمَدينَة مشْرِيَّةَ [ولاَيَة النَّعَامَة حَاليّا]، كَانَ الابْنَ الأكْبَرَ في قَائمَةَ البَنين، اخْتَارَ لَهُ أبُوهُ اسْمَ الحَبيب ليَكُونَ مَحْبُوبًا لَدَى النَّاس، ولَدَى أفْرَاد عَائلَته، وعُنيَ بتَرْبيَته عنَايَةً خَاصَّةً. فَمُنْذُ أنْ بَدَأَ يُدْرِكُ ويُمَيِّزُ، أَلْحَقَهُ بالْكُتَّاب، ليَتَعَلَّمَ القرَاءَةَ وَالكتَابَةَ، ويَحْفَظَ قَدْرًا منَ الْقُرْآن الكَريم، ويَتَلَقَّى مَبَادئَ اللُّغَة العَرَبيَّةَ. وَحينَ بَلَغَ السَّادسَةَ منَ العُمُر وَجَّهَه إلَى المَدْرَسَة الفَرَنْسيَّة المَوْجُودَة بالْمَدينَة، فَوَاصَلَ تَعَلُّمَهُ بهَا إلَى نهَايَة مَرْحَلَةَ التَّعْليم الابْتدَائي، ولَكنَّهُ تَوَقَّفَ عنْدَ هَذَا المُسْتَوَى، لأنَّ مُوَاصَلَةَ التَّعَلُّم لَمْ تَكُنْ مُتَاحَةً لجَميع الجَزَائريِّينَ، نَتيجَةَ سيَاسَة الإدَارَة الاسْتَعْمَارِيَّة.

ومَعَ ذَلكَ مَكَّنَتْهُ سَنَوَاتُ التَّعَلُّم الَّتي قَضَاهَا في المَدْرَسَة منْ مَعْرفَة أسَاسيَّات القرَاءَة وَالكتَابَة باللُّغَة الفَرَنْسيَّة. فَأفَادَهُ ذَلكَ

فَي تَنْمِيَة قُدُرَاته عَلَى مُطَالَعَة مَا يُكْتَبُ في الجَرَائد، وَقرَاءَة اَلكُتُب واَلقصَص الَّتي تُنَاسبُ مُسْتَوَاهُ، مَمَّا زَادَ في وَعْيه وَنُمُوِّ مَعْلُومَاته الَّتي مَكَّنَتْهُ منْ فَهْم مَا كَانَ يَدُورُ بَيْنَ المُنَاضلينَ في حزْب الشَّعْب، وَفي صُفُوف الكَشَّافَةَ الَّتي انْخَرَطَ فيهَا مُبَكِّراً.

تلْميذٌ :

هَلْ اسْتَمَرَّ تَعَلُّمُهُ فِي الكُتَّابِ مُدَّةً طَوِيلَةً؟

الأسْتَاذُ:

لاَ لَمْ يَسْتَمرَّ تَعَلُّمُهُ في الكُتَّاب طَويلاً، فَقَدْ غَادَرَ الكُتَّابَ بإرَادَته، إذْ لَمْ تَرُقْهُ الطَّريقَةُ التَّعْليميَّةُ الَّتي كَانَتْ مُتَّبَعَةً في الكُتَّاب، أوْ لنَقُلْ تَمَرَّدَ عَلَى هَذه الطَّريقَة، ورَفَضَ الخُضُوعَ للأسْلُوب الَّذي يُعَامَلُ به شَيْخُ الكُتَّاب أطْفَالَهُ، فَانْقَطَعَ عَن الدِّرَاسَةَ وَوَجَّهَ اهْتمَامَهُ لنَشَاطٍ آخَرَ، هُوَ النَّشَاطُ الكَشْفِيُّ،

وَمِنْهُ دَخَلَ إِلَى المَيْدَانِ السِّيَاسِيِّ، لأنَّ السِّيَاسَةَ فِي تِلْكَ الأيَّامِ أصْبَحَتْ تَفْرِضُ نَفْسَهَا، مِنْ خِلاَلِ مَا كَانَ يَجْرِي فِي الْوَاقِعِ، وَمَا تَتَحَدَّثُ عَنْهُ الصُّحُفُ، وَمَا يَدُورُ بَيْنَ مُنَاضِلِي الأحْزَابِ.

تِلْمِيذٌ آخَرُ:

وَكَيْفَ سَمَحَ لَهُ أبُوهُ بِالتَّوَقُّف عَنِ التَّعَلُّمِ فِي الكُتَّاب، مَعَ أنَّهُ كَانَ يَرْغَبُ فِي أنْ يَكُونَ مِنْ حَفَظَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ؟

الأسْتَاذُ:

لَمْ يُرِدْ أبُوهُ أنْ يُرْغِمَهُ عَلَى أمْرٍ لاَ يَرْغَبُ فِيه، وَلَكِنَّهُ فِي الوَقْتِ ذَاتِه كَانَ يَدْفَعُهُ إِلَى التَّفْكِير فِي طَرِيقَةٍ يُكْمِلُ بِهَا تَعَلُّمَهُ، خَارِجَ مَدِينَةَ "مَشْرِيَّة"، وَالشَّابُّ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ رَاضِيًا عَنْ مُسْتَوَاهُ الدِّرَاسِيِّ، الَّذِي اكْتَسَبَهُ فِي المَدْرَسَةِ وَفِي الكُتَّابِ وَنَمَّاه بِالْمُطَالَعَةِ،

وَمُشَارَكَة النَّاس في الحوَار السَّيَاسيِّ. لَقَدْ أحَسَّ، وَهُوَ يَنْشَطُ في صُفُوف الحِزْب، أنَّ مُسْتَوَاهُ التَّعْليمي لاَ يُؤَهِّلُهُ لمَا يُريدُ تَحْقيقَهُ في الْحَيَاة؛ فَمَعْلُوماتُه مَازَالَتْ نَاقصَةً، لذَلكَ قَرَّرَ السَّفَرَ إلَى المَغْرب الأقْصَى وَالالْتحَاقَ بجَامع الْقَرَوِيِّينَ، لمُوَاصَلَة التَّعَلُّم، وَاكْتسَاب المَعْرفَة.

هَذه هيَ المَحَطَّةُ الأولَى منْ حَيَاة الكَاتب، أمَا المَحَطَّةُ الثَّانيَةُ، فَتَتَمَثَل فِي الآتِي:

في سَنَة 1947، سَافَرَ إلَى المَغْرب (فَاس) وَسَجَّلَ نَفْسَهُ في دُرُوس جَامع الْقَرَوِيِّينَ، وَعَكَفَ عَلَى التَّعَلُّم مُدَّةَ أرْبَع سَنَوَات، مَعَ مُوَاصَلَة نَشَاطه السِّيَاسي رَغْمَ بُعْده عَن الجَزَائر، وَلَمْ يَقْطَعَ ارْتبَاطُهُ بالحزْب إلاَّ حَينَمَا اشْتَدَّتْ أزْمَةُ الخلاَف في قَمَّةَ هَرَمه في مَطْلَع الخَمْسينيَّات -كَمَا سَبَقَ بَيَانُ ذَلكَ-، حينَذَاكَ رَفَضَ هَذَا الخلاَفَ وَوَقَفَ إلَى

صَفِّ الْمُنَاهِضِينَ لَهُ.

فِي بِدَايَةِ الخَمْسِينِيَّات، وَعِنْدَ عَوْدَتِه مِنَ المَغْرِبِ سَافَرَ إِلَى تُونِسَ لِإِكْمَالِ بَقِيَّةِ الدِّرَاسَةِ هُنَاكَ، فِي جَامِعِهَا المَعْمُور(جَامِعِ الزَّيْتُونَة)، حَيْثُ أَقْبَلَ عَلَى التَّحْصِيلِ العِلْمِي، إِلَى غَايَةِ سَنَةِ 1954، وكَانَ أَمَلُهُ أَنْ يَتَخَرَّجَ بِشَهَادَةٍ عِلْمِيَّةٍ، تُؤَهِّلُهُ لِنَشْرِ العِلْمِ فِي بِلَادِه، لَكِنَّ الظُّرُوفَ حَالَتْ دُونَ ذَلِكَ، فَانْقَطَعَ عَنِ الدِّرَاسَةِ، وَعَادَ إِلَى بِلَادِه. وَهُنَا تَبْدَأُ المَحَطَّةُ الثَّالِثَةُ.

تِلْمِيذٌ: مَاذَا فَعَلَ بَعْدَ عَوْدَتِه إِلَى الجَزَائِر؟

الأُسْتَاذُ: بَعْدَمَا رَجَعَ إِلَى بِلَادِه، اسْتَقَرَّ مَعَ عَائِلَتِه فِي مَدِينَةِ بَلْعَبَّاس، وَهُنَاكَ انْقَطَعَ عَنِ النَّاسِ لِلتَّفْكِيرِ وَالكِتَابَةِ، بِهَدَفِ الخُرُوجِ مِنْ حَالَةِ القَلَقِ، الَّتِي اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ انْقِطَاعِه عَنِ الدِّرَاسَةِ بِسَبَبِ الظُّرُوفِ الَّتِي مرّ بِهَا فِي

تونس. وممّا زَادَ في تَأزُّمِ هَذه الحَالَة -حَالَة القَلَق- الوَضْعُ السِّيَاسيُّ الّذي كَانَتْ عَلَيْهَ حَركَةُ الانْتصَار للْحُرِّيَّات الدِّيمُقْرَاطيَّة بسَبَبَ اسْتفْحَالَ الْخلاَفَ بَيْنَ عَنَاصر القيَادَة؛ ذَلكَ الخلاَفُ الَّذي دَفَعَ الحَبيبَ بَنَّاسي إلَى شَجْبه وَالْكتَابَةَ عَنْ آثَاره السِّلْبيَّة. إذْ رَأى فيهَ تَكْريسًا للطُّمُوح الشَّخْصيِّ وَحُبِّ الزَّعَامَة عَلَى حسَاب المَصْلَحَة الوَطَنيَّة، لذَلكَ كَتَبَ كتَابًا مَا يَزَالُ مَخْطُوطًا، عُنْوَانُهُ "هَذه هيَ الرَّجْعيَّةُ فَاحْذَرُوهَا"، أوْضَحَ فيه أنَّ التَّخَلِّيَ عَن المَبَادئ الَّتي قَامَ عَلَيْهَا الْحزْبُ وَاللُّجُوءَ إلَى تَقْديم العَرَائض وَالاحْتجَاجَات، وَالاهْتمَام بالانْتخَابَات الَّتي لاَ يَتحَقَّقُ منْهَا شَيْءٌ، هَذه كُلُّهَا مَنَ الأسَاليب الَّتي لَمْ تَعُدْ تُجْدي.

إنَّ الفَتْرَةَ الَّتي اسْتَمَرَّت منْ تَاريخ رُجُوع بَنَّاسي منْ تُونسَ (مارس 1954 إلَى تَاريخ انْدلاَع ثَوْرَة نوفمبر 1954)، مَكَّنَتْهُ منْ

اسْتعْرَاض أوْضَاع البلاَد، وَطَرْح التَّصَوُّر الَّذي يَجبُ أنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْه، أَلاَ وَهُوَ تَأسيسُ هَيْئَة سيَّاسيَّة عُلْيَا قَويَّة، تَكُونُ بمَثَابَة جَبْهَة وَاحدَة مُوَحَّدَة تَذُوبُ فيهَا جَميعُ النَّزَعَات والاتِّجَاهَات، وَيلْتَقي فيهَا جَميعُ المُخْلصينَ الَّذينَ يَهُمُّهُمْ تَحْريرُ البلاَد.

وَمنْ أهَمِّ المَقَالاَت الَّتي كَتَبَهَا في هَذه الفَتْرَة وَنَشَرَهَا في كتَابَه "صَرْخَةُ القَلْب" المَقَالَةُ الَّتي بَيْنَ أيْدينَا "شَمْعَةٌ تَحْتَرق" وَالَّتي يَصفُ فيهَا قَلْبَه الَّذي يَتَمَزَّقُ وَيَحْتَرَقُ أَلَمًا، نَتيجَةَ مَا تُعَانيه البَلاَدُ. وَلَعَلَّهُ يَرْمُزُ منْ وَرَاء ذَلكَ إلَى المَدْرَسَة الَّتي هيَ في الأصْل مَصْدَرُ النُّور وَمَبْعَثُ الأَمَل، لَكنَّ إدَارَةَ الاحْتلاَل غَيَّرَتْ وَظيفَتَهَا بالنِّسْبَة إلَى أبْنَاء الوَطَن، فَلَمْ تَعُدْ مثْلَمَا كَانَتْ قَبْلَ الاحْتلاَل. وَنَفْهَمُ هَذَا منْ قَوْله:

«إيه أيَّتُهَا الشَّمْعَةُ! كُنْتِ قَبْلَ دَقَائقَ

طَويلَةَ القَامَة، بَديعَةَ الشَّكْل، جَميلَةَ اللَّوْن، فَجَاءَت النَّارُ المُحْرقَةُ، فَأكَلَتْ مَنْ طُولكَ، وَغَيَّرَتْ شَكْلَكَ وَعَبَثَتْ بِلَوْنكَ النَّاصعِ».

فَالنَّارُ المُحْرقَةُ هيَ رَمْزٌ للإدَارَة الاسْتعْمَاريَّة، الَّتي جَعلَت المَدْرَسَةَ غَريبَةً عَنَ المُجْتَمَع، غَيَّرَتْ لُغَتَهَا وَأهْدَافَهَا، وَعَبَثَتْ بالْقيَم الرُّوحيَّة، الَّتي هيَ أسَاسُ نَشَاطهَا. وَهُنَاكَ مَقَالاَتٌ أخْرَى كَتَبَهَا في هَذه الفَتْرَة منْهَا: "أطْيَافُ الذِّكْرَى، وَانْبعَاثُ الأدَبَ الجَزَائرِي، وَحَديثُ الكُتُب، وَيَتيمُ الأصْنَام".

وَلَمَّا انْدَلَعَت الثَّوْرَةُ، كَانَ مُهَيَّأ للْكتَابَة عَنْهَا وَتَدْوين وَقَائعهَا، إذْ كَتَبَ عَدَداً منَ المَقَالاَت تُشيدُ بالثَّوْرَة، وَتُسَجِّلُ الأحْدَاثَ الَّتي وَقَعَتْ في سَنَتهَا الأولَى، مثْل: "الدُّكْتُورُ الشَّهيدَ" وَ"شَهيدٌ بلاَ قَبْر" وَغَيْر ذَلكَ منَ المَقَالاَت الَّتي كَانَ يَنْشُرُهَا بجَريدَة الأخْبَار التُّونسيَّة.

وَفي مُنْتَصَف سَنَةَ 1955، ازْدَادَ نَشَاطُهُ الكتَابي عَن الثَّوْرَة وَعَنْ شُهَدَائهَا، فَكَتَبَ في هَذَا الصَّدَد مَقَالاَتَ، تَنَاوَلَتْ وَقَائعَ اسْتشْهَاد الدُّكْتُور بَنْ عُودَة بَنْ زَرْجَبْ، وَمُصْطَفَى بَنْ بُولْعيد، وبَلْقَاسم زَدُّور.

كَانَ يَنْوي تَأليفَ كتَاب، يَضُمُّ عَدَداً منَ الوَقَائع وَالقصَص بعُنْوَان: "طَرَائفُ مَنْ قصَص الثَّوْرَة"، لأَنَّ انْدلاَعَ الثَّوْرَة بَعَثَ في نَفْسه الأَملَ، وَأَخْرَجَهُ منْ حَالَة الانْطَوَاء الَّتي كَانَ يَعيشُهَا، وَحَرَّكَ مَشَاعرَهُ المُتَطَلِّعَةَ إلَى فَجْر الاَسْتقْلاَل، فَأَصْبَحَ يَكْتُبُ عَن الثَّوْرَة في جَريدَة الأَخْبَار التُّونسيَّة الَّتي أَصْبَحَ مُرَاسلَهَا؛ يُوَافيهَا بأَدَقِّ الأَحْدَاث عَمَّا كَانَ يَجْري في الجَزَائر، مَنْ ذَلكَ مَقَالاَتُهُ الَّتي دَاوَمَ عَلَى كتَابَتهَا بعُنْوَان: "الثَّوْرَةُ وكَيْفَ نَشَأَتْ"، عَرَّفَ بهَا مَنْ لَمْ يَكُنْ يَعْرفُهَا.

وَنَظَراً لهَذَا التَّوَجُّه الَّذي أَعْطَاهُ كُلَّ جُهْده،

وَظَهَرَ في كتَابَاته، وَهُوَ مُسَانَدَةُ الثَّوْرَة وَمُسَايَرَةُ الأَحْدَاث الَوَطَنيَّة الَّتي تُبْرزُ عَظَمَةَ الثَّوْرَة، وَتُبَشِّرُ بانْتصَارَاتهَا، اتَّصَلَ به المَسْؤُولُونَ في جَبْهَةَ التَّحْرير، وكَلَّفُوهُ بالإشْرَاف عَلَى تَأسيس خَلاَيَا العَمَل الفدَائيِّ، وَتَعْبئَة الشَّبَاب، وَتَجْنيدهمْ للْعَمَل في صُفُوف الثَّوْرَة. وَحينَ ظَهَرَتْ قُدْرَتُهُ عَلَى التَّنْظيم وَالتَّوْعيَة، عَيَّنُوهُ مُرْشداً سيَاسيّا في مَدينَة بَلعَبَّاسْ، ليُتَابعَ العَملَ النِّظَاميَّ الَّذي تَقُومُ به لجَانُ التَّنْظَيم، وَيَبُثَّ التَّوْجيهَات الَّتي يَنْبَغي أَنْ تَتَّبعَهَا كُلُّ لَجْنَة وَتَسيرَ عَلَى ضَوْئهَا، فَوَجَدَ الَحبيبُ بَنَّاسي في نَفْسه تَجَاوُبًا مَعَ هَذه الْمَهَمَّة الَّتي كُلِّفَ بهَا، وَأَخَذَ يَتَحَرَّكُ وَيُكَثِّفُ اتِّصَالاَته بالأحْيَاء، وَيَعْقدُ لقَاءَات مَعَ الَّذينَ أَبْدَوْا اسْتَعْدَادَهُمْ للْعَمَل الفدَائيِّ، وَالانْضمَامَ إلَى الثَّوْرَة. كَانَ هَدَفُهُ منْ هَذه اللِّقَاءَات تَعْميقَ الوَعْيِ بأَهَميَّة التَّخْطيطِ لتَوْسيعِ

العَمَليَّات الفدَائيَّة، وَالوُقُوف فِي وَجْهِ أعْوَانِ الاسْتِعْمَارِ وَعُيُونِه.

وَمُنْذُ أنْ كُلِّفَ بِهَذه الْمَهَمَّة أصْبَحَ مَسْؤُولُو الثَّوْرَة يَتَرَدَّدُونَ عَلَى مَنْزِلهِ دُون انْقطَاع، لِيُبَلِّغُوهُ التَّوْجِيهَات المَطْلُوبَةَ، ويَأخُذُوا مِنْهُ الأخْبَارَ وَالمَعْلُومَاتِ الْمُسْتَجَدَّةَ فِي المَدِينَة.

وَلَمَّا اشْتَدَّت العَمَليَّاتُ الفدَائيَّةُ، وَاتَّسَعَ نطَاقُهَا فِي كُلِّ أنْحَاء المَدِينَة فِي مُنْتَصَف عام 1956، بَدَأت السُّلُطَاتُ الفَرَنْسِيَّةُ تُكَثِّفُ البَحْثَ عَنْهُ.

وَيُرْوَي أنَّ البُولِيسَ السِّرِّيَّ اقْتَحَمَ يَوْمًا بَيْتَ الحَبِيب، وبَعْدَ تَفْتِيشه تَفْتِيشًا دَقِيقًا سَألُوا عَنْهُ فَقِيلَ لَهُمْ: إنَّهُ انْقَطَعَ عَنْ زِيَارَة أهْله مُنْذُ أيَّامٍ عَدِيدَةٍ، فَأيْقَنُوا أنَّهُ الْتَحَقَ بِالجَبَل.

حَاوَلَ البُولِيسُ أثْنَاءَ اسْتِنْطَاقِ بَعْضِ أفْرَادِ

عَائلَة بَنَّاسي الحُصُولَ عَلَى بَعْض الَمعْلُومَات الَّتي تَدلُّهُمْ عَلَى مَكَان وُجُوده، لَكنْ دُونَ جَدْوَى، وَفي أثْنَاء التَّفْتيش، عَثَرُوا عَلَى وَثَائقَ أخَذُوهَا مَعَهُمَ ظَنّا مَنْهُمْ أنَّهَا سَتُفيدُهُمْ في مَعْرفَة أسْرَار الثَّوْرَة. هَذه الوَثَائقُ هي: مَجَلَّةٌ تَحْملُ صُورَةَ جَمَال عَبْد اَلنَّاصر، وكتَابُ الأمير عَبْدُ القَادر، وَصُورَةٌ للشَّيْخ عَبْدُ الحَميد بْن بَاديس. وَلَمَّا وَصَلَ مَسَامعَ الحَبيب بَنَّاسي خَبَرُ الحَمْلَة التَّفْتيشيَّة الَّتي قَامَ بهَا البُوليسُ السِّرِّيُّ، أَصْبَحَ يَحْتَاطُ لذَلكَ، كُلَّمَا فَكَّرَ في المَجيء إلَى الحَيِّ وَالاتِّصَالَ بأهْله، بحَيْثُ لَمْ يَعُدْ يَقْتَربُ منَ المَنْزل وَلاَ منَ الحَيِّ الَّذي يَقَعُ فيه، إلاَّ بَعْدَ أنْ يَتَيَقَّنَ أنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَرْصُدُ تَحَرُّكَاته.

وَهَكَذَا هَجَرَ الأحْيَاءَ القَريبَةَ منْ سُكْنَاهُ، ثُمَّ هَجَرَ المَدينَةَ كُلَّهَا، وَأصْبَحَ يَنْتَقلُ منْ جهَة إلَى أخْرَى، تَارَةً في بُوحْنيفيَّة وَتَارَةً في بَادَيَة

بَلعَبَّاس، عِنْدَ بَعْضِ الْمُنَاضِلِينَ.

وَحِينَمَا رَكَّزَ البُولِيسُ البَحْثَ عَنْهُ غَادَرَ الحَبِيبُ بَنَّاسِي المَدِينَةَ نِهَائِيّا، وَالْتَحَقَ بالْمُجَاهِدِينَ بالجَبَل، لَكِنَّهُ لَمْ يَعِشْ كَثِيراً بَعْدَ الْتِحَاقِهِ بِجَيْشِ التَّحْرِيرِ الوَطَنِي.

وَتَتَّفِقُ العَدِيدُ مِنَ الرِّوَايَات أَنَّ الحَبِيبَ بَنَّاسِي اسْتُشْهِدَ يَوْمَ 15 دِيسمبر 1956 بَعْدَ أَنْ شَارَكَ فِي مَعْرَكَةٍ اشْتَبَكَ فِيهَا الْمُجَاهِدُونَ مَعَ عَسَاكِرِ الجَيْشِ الفِرَنْسِي فِي نَاحِيَةِ تَلاغ قُرْبَ بَلعبَاس.

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار

مِنْ أَمْجَادِ الْجَزَائِرِ (1962 - 1830)

سِلْسِلَة تَارِيخِيَّة ثَقَافِيَّة تَصْدُرُ عَنْ وَزَارَة الْمُجَاهِدِينَ